في تاريخ الجمعيات السرية

١ ـ طائفة سرية عجيبة

تعيش في عصر المدنية بأساليب همجية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قامت الجمعيات والطوائف السرية في جميع العصور والمجتمعات وتنوعت مبادئها وغاياتها الدينية والسياسية والاجتماعية ، ولعبت مختلف الأدوار في تكوين الآراء والعقائد ، وذهبت في الغلو والإغراق كل مذهب ، وتركت آثارها في جميع الأمم والمجتمعات التي قامت بها

ولكن التاريخ لم يسجل في صفحاته السرية الحافلة سيرة أغرب وأروع من سيرة جماعة سرية من البشر الهائمين اصطلحوا على التوسل لتحقيق مبادئهم الروحية المزعومة بتشويه الانسان وتعطيل مهمته الاجتماعية بطريقة بربرية اعتبرت في جميع الأمم والعصور وحشية مثيرة تطاردها الأمم المتمدينة بمنتهى الشدة والصرامة . تلك هي « طائفة المجبوبين » (سكوبتسي) Skoptsy السرية التي قامت في روسيا في أواسط القرن الثامن عشر ، ولا تزال قائمة حتى اليوم ، والتي تعتبر الجب وسيلة النقاء من الدنس وطريق الخلاص الأبدي من آثام هذه الدنيا

ولقد عرف التاريخ منذ أقدم العصور أمثلة من هذ النوع اعتبرت فيها هذه الوسيلة الهمجية ضرباً من التضحية السامية التي ترتفع بصاحبها إلى مراتب التقديس ، وظهرت بين بعض طوائف الرهبان في أوائل عصور النصرانية ، وذاعت حيناً بين رهبان الكنيسة الشرقية ، ولكنها كانت دائماً مثار الإنكار من الناحيتين الدينية والإنسانية

وعرفت معظم العصور والأمم طوائف الخصيان والمجبوبين من العبيد والخدم ، وعرفتها المجتمعات الحديثة حتى أواخر القرن الماضي ، ولكن طوائف الخصيان كانت تحشد دائماً من الرقيق بسائر أنواعه ؛ وكان نظام المجتمع منذ فجر التاريخ قائماً على التفرقة بين طوائف المجتمع ، وكان الرق مشروعاً في هاتيك العصور ، وكان الرقيق متاعاً مباحاً تجري عليه سائر التصرفات ، وكان الخصي أو الجب وسيلة بربرية لإعداد طوائف من الحشم تمتاز بصفات خاصة تؤهلها لخدمة القصور والبيئات الرفيعة ؛ وقد استطاعت طوائف الخصيان أن تشق طريقها إلى السلطة والنفوذ في مواطن كثيرة ؛ ولكنها كانت تعتبر دائماً من الناحية الاجتماعية من الطبقات الدنيا ، وكان ينظر إليها دائماً في كثير من الرثاء والاشفاق لأنها تعاني حالة اجتماعية منافية للأوضاع الإنسانية الطبيعية

ولكن المجتمعات المتمدنة تنكر اليوم الرق وتعتبره ضرباً من ضروب الهمجية الذاهبة . وتعتبر القوانين الحديثة الخصي أو الجب من أشنع الجرائم التي يمكن أن تقع على إنسان ، وتعاقب مرتكب هذه الجريمة الشائنة بأقسى العقوبات ، بل تعاقبه بالاعدام كالقاتل العمد سواء بسواء

ومع ذلك ففي قلب أوربا المتمدينة تقوم إلى اليوم تلك الطائفة السرية العجيبة طائفة « سكوبتسي » Skoptsy وشعارها تلك الجريمة المثيرة جريمة الخصي أو الجب كوسيلة إلى السعادة الروحية والخلاص الأبدي

* * *

وترجع الرواية قيام هذه الطائفة السرية إلى أواخر القرن السابع عشر على يد فلاح يدعى دانيلو فليبوف ؛ ولكنها عرفت يومئذ بجماعة « أهل الله » ، وتزعم الرواية أن دانيلو هذا ألقى ذات يوم جميع الكتب المقدسة في نهر « الفولجا » وقال إنه لا يوجد كتاب يحقق سلام الروح الأبدي سوى الروح القدس ذاته ؛ ثم صعد إلى الجبل مع نفر من أنصاره ، فنزلت عليه سحابة من النور ، ونفذ إليه الروح القدس ؛ وزعم أتصاره أن الاله قد مثل في شخصه على مثل ما يزعم الدروز بالنسبة لشخص الحاكم بأمر الله

وتتلخص تعاليم فليبوف فيما يأتي : إن الاله الذي بشرت به الأنبياء نزل إلى الأرض لينقذ أرواح البشر ؛ وليس ثمة من إله غيره ، ولا تعاليم غير تعاليمه ؛ وعلى المؤمنين أن يطيعوه ، وألا يشربوا الخمر ، وألا يرتكبوا الزنا ، وألا يتزوجوا ؛ وعلى من تزوج ألا يقرب زوجته ؛ وعليهم ألا يسرقوا ، وأن يحتفظوا بسر تعاليمه ، وأن يحب بعضهم بعضاً ، وأن يؤمنوا بالروح القدس .

وتبنى فليوف بعد ذلك فلاحاً آخر يدعى سوسلوف وزعم أنه هو ابنه المسيح ، واختار سوسلوف له اثنى عشر رسولا ، وتوفى سنة ١٧١٤ ، ودفن فى أحد الأديار

وبعد وفاة سوسلوف تمثلت روح المسيح على زعمهم فى شخص لوبكين وهو جندى من فرقة الاسترلتزي ؛ وعلى يديه انتشر مذهب الطائفة فى كثير من الأديار بين الرجال والنساء معاً . ولما استفحل أمره قبض عليه وأعدم سنة ١٧٣٢ وأخرجت جثته فيما بعد وذر رفاته في الهواء ؛ وقبض على كثيرين من أشياعه وحوكموا بتهمة الزوق والكفر ونفى كثيرون منهم إلى سيبريا ؛ ولكن هذه المطاردة لم تخمد من حماسة أولئك الكفرة المتعصبين فاستمروا يبثون مبادئهم فى الخفاء ، ويتعاقب في زعامتهم مسيح بعد آخر ؛ وكانوا يقيمون شعائرهم سراً فى جوف الليل فى بعض الضياع أو الأنحاء المهجورة ، وفى أواخر القرن الثامن عشر تطورت مبادىء الطائفة وتوسع بعض دعاتها فى تفسير تعاليم فليوف ، وقال إن الزواج المحظور هو الزواج الكنسى فقط وأن « الأخ » يستطيع أن يتصل بأخته اتصالاً روحياً ؛ ولم يلبث أن ذاع بينهم الاختلاط الجنسى الحر ، وكان هذا الاختلاط يتخذ أحياناً صوراً مثيرة ، فتعقد جماعاتهم بالليل ، وتنتهى شعائرهم المزعومة بمناظر مروعة من الفجور والفسق

وكانت هذه نقطة التحول فى مبادئ طائفة « أهل الله » : ذلك أن فريقاً من المؤمنين رأى فى هذه الحياة الجنسية الشائنة خروجا على تعاليم فليوف التى تحتم التزام الفضيلة والعفة ، ورأو فى « الجب » خير وسيلة للتخلص من الشهوات والموبقات الآثمة ؛ ومن هنا ظهرت طائفة « المجبوبين » (السرية سكوبتسى) واكتشفت السلطات الضحايا الأولى لهذه الدعوة البربرية فى سنة ١٧٧٢ فى مقاطعة أورمل ؛ وظهر من التحقيق الذى أمرت الامبراطورة كاترين بإجرائه أن الدعاة يزعمون أنهم يرسمون للبشر طريق الخلاص الأبدي ، وأنه يجب على المؤمن ألا يذوق الخمر ، وألا يعاشر النساء ، ويجب على الفتيان والفتيات ألا يتزوجوا ، كما يجب على المتزوجين أن يضربوا عن الاتصال الجنسى ؛ وظهر أيضاً أن الدعاة استطاعوا أن يؤثروا على كثيرين من الفلاحين ، وأن يحملوهم على قبول الخصى أو الجب المطبق تحقيقاً للعفة والسعادة الأبدية . ولم تستطع السلطات يومئذ أن تظفر بزعيم الطائفة الحقيق ؛ ولكن ظهر فيما بعد أنه فلاح يدعى سلفانوف ، وهو فتى فى الثلاثين من عمره ، هادئ المزاج ، كثير التأمل والهيام ، عارف بالقراءة والكتابة وهو ما كان يندر فى ذلك العصر ؛ وكان يبشر بدعوته بعبارات صوفية غامضة ؛ وكان من زعماء « أهل الله » ولكن راعه ما رآه من ذيوع الفسق بين المؤمنين ، فبدأ دعوته ضد « السحر » النسوى أصل كل بلاء وإثم ، وأخذ يدعو إلى « النقاء المطلق » ؛ وهذا النقاء لا يتحقق فى رأيه إلا بمجانبة كل بواعث الضعف ولا سيما الاغراء الجنسى ، والكبرياء ، والأنانية ؛ ولا سبيل إلى تحقيق هذا المثل الأعلى إلا « بقتل الجبة » أو بعبارة أخرى إعدام الأعضاء الجنسية والتخلص من آثامها

« هكذا نشأت طائفة « المجبوبين » (سكوبتسى) ، واستطاع سلفانوف أن يحشد حوله جماعة من التلاميذ والأشياع معظمهم من الفلاحين البسطاء ؛ ولم تكتشف السلطات أمره إلا فى سنة ١٧٧٥ إذ قبض عليه وجلد وعذب مراراً ، ثم نفى إلى سيبريا ، وقبض على كثيرين من أشياعه المجبوبين ، وجلدوا ، وحكم عليهم بمختلف العقوبات

ولكن الدعوة البربرية لم تخمد مع ذلك ، فحملها تلاميذ سلفانوف ورفعوه إلى مرتبة التقديس وأسموه « بالمنقذ » وجاوزت الدعوة طبقة الفلاحين إلى الطبقات الأخرى ، فانتظم فى سلك الطائفة جند وتجار وغيرهم خضعوا جميعاً لهذا التشويه الهمجى ؛ وزعموا أخيراً أن سلفانوف هو الانسان الوحيد الذى مثلت فيه روح المسيح ، وأنه سيعود قريباً . أما سلفانوف فلبث يرسف فى منفاه فى أركوتسك زهاء عشرين عاماً ، ثم استطاع الفرار أخيراً ولم تهتد السلطات إلى أثره

وفي العام الثانى ظهر فى قرية بيخوفو على مقربة من موسكو شخص يرتدى أسمالاً بالية ، وقد حزم بطنه بسلاسل من الحديد وبدت عليه آثار السقم والورع ؛ فالتف حوله بعض الفلاحين ، وكان يصلى بينهم بلغة مجهولة ؛ ولم يمض سوى قليل حتى ظهرت معجزاته إذ استطاع أن يشفى امرأة مريضة ، وأن يحول الخمر إلى ماء ؛ وفى ذات يوم أخذ يتكلم بالروسية وزعم أنه القيصر

« بطرس فيدروفتش » ولم يكن هذا الدعي سوى سلفانوف نفسه ، رأى في حوادث البلاط الروسي يومئذ متنفذاً جديداً لدعوته ؛ والقيصر بطرس فيدروفتش أو بطرس الثالث هو زوج الامبراطورة كاترين ، وقد توفي سنة ١٧٦٢ في ظروف مؤسية غامضة ، واتهمت زوجه بتدبير مصرعه لأنهما كانا على خلاف دائم ؛ وكان القيصر مصاباً بالضعف الجنسي ، وكانت زوجه تبغضه ويبغضها لفجورها ؛ ولكنه كان محبوباً من بعض طوائف الشعب لنزعته الحرة وخلاله الرقيقة ، وكان من مآثره التي زادت في حبه أن أفرج عن آلاف عديدة من المنفيين لأسباب دينية ؛ فلما توفي على هذا النحو الغامض ذاعت حول وفاته أقاويل وروايات كثيرة ، وزعم كثيرون أنه لا يزال على قيد الحياة ، وقام أكثر من دعي ينادي بأنه القيصر بطرس ، ومن أشهر هؤلاء بوجاتشيف زعيم القوزاق الذي أثار الثورة حيناً في مقاطعة الأورال ، ثم هزم وأعدم . واتخذت هذه الأسطورة على يد سلفانوف وأشياعه صبغة جديدة ، خلاصتها أن المسيح تمثل لآخر مرة في شخص القيصر بطرس الثالث ، وأن أمه العذراء البتول ولدته بمعجزة ثم تخلت عن العرش لوصيفة لها تشبهها كل الشبه ، وذهبت لتعيش بين « أهل الله » في مقاطعة أوريل باسم الفلاحة آكولينا إيفانوفا . ولما كبر بطرس وزوج بالامبراطورة كاترين اكتشفت زوجه أن به عنة فاعتزمت قتله والاستيلاء على العرش من بعده ؛ ولكن بطرس علم بأمر هذه المؤامرة ، فترك العرش وغادر بطرسبرج « لكي يقاسي مع أهل الله » وقتل مكانه مجبوب يشبهه كل الشبه ؛ واختفى القيصر حيناً ثم قبض عليه ، وعذب كما عذب المسيح ، ونفي مدى عشرين عاماً في مكان سحيق ، ولكنه استطاع أن يفر ، وأن يعود متشحاً بكل مجده وعلاه

تلك هي الأسطورة التي مزجها سلفانوف بشخصه ، وحاول أن يستغلها من الناحيتين السياسية والدينية ؛ ولكنه لم يلبث أن وقع في يد السلطات مرة أخرى ، فقبض عليه في موسكو سنة ١٧٩٧ ، وزج إلى دار المجانين في بطرسبرج ؛ وأراد القيصر بول الأول (وهو ابن القيصر بطرس الثالث وكاترين) أن يرى ذلك الدعي الذي يزعم أنه أبوه ، فاستدعى سلفانوف إليه ، وجرت بينهما محادثة تنبأ فيها سلفانوف للقيصر بموت سريع عنيف . ولبث الدعي في سجنه طيلة حكم بول الأول ؛ وقبض أيضاً على تلميذه ورسوله « شيلوف » وسجن حتى موته وغدا قبره مزاراً يحج إليه المجبوبون من سائر الأنحاء

وفي عهد القيصر اسكندر الأول تنفست طائفة المجبوبين الصعداء ، لأن القيصر الجديد كان ذهناً حراً في معنى من المعاني؛ وفي عهده صدرت عدة مراسيم تحريرية ، ومنها مرسوم بالكف عن مطاردة المجبوبين « لأنهم بفعلهم الذميم قد عاقبوا أنفسهم بأنفسهم عقاباً كافياً » وعلى ذلك أطلق سراح المعتقلين منهم ، وانتدبت لجنة خاصة لبحث جميع المسائل المتعلقة بالطائفة ، وأفرج أخيراً عن سلفانوف بتدخل سيد بولوني من ذوي النفوذ يدعى الكسي اليانسكي ، وكان من المتصوفين الهائمين ، فاعتنق مبادىء الطائفة وكان أول أعضائها من خاصة المثقفين ، وقد لعب فيما بعد دوراً عظيماً في تطورها وتقدمها

وسنرى فيما يلي كيف عاشت هذه الطائفة السرية العجيبة خلال القرن القرن التاسع عشر عصر العلم والنور ، وكيف أنها لا تزال قائمة حتى يومنا في ظل النظام البلشفي ، وفي قلب أوربا المتمدينة (١)

(للبحث بقية)

فيما في أوائل اكتوبر

محمد عبد الله عنان

(١) اعتمدنا في هذا الفصل بالبحث المستفيض الذي كتبه المؤرخ فولكوف عن طائفة « سكوبتسي » وبما كتبه سخوملين في مؤلفه بالفرنسية عن القضايا الروسية الشهيرة

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقـــلم

احمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً